

أبو خليل القبّاني

رئيس مجلس الإدارة
وزير الثقافة
الأستاذ محمد الأحمد

الإشراف العام
المدير العام لهيئة العامة السورية للكتاب
د. ثائر زين الدين

رئيس التحرير
مدير منشورات الطفل
د. جمال أبو سمرة

لوحة الغلاف
رامي الأشهب

الإخراج
حنان الباني

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

أيلول ٢٠١٧

أبو خليل القباني

كتابة: هناء أبو أسعد

الهيئة العامة السورية للكتاب - مديرية منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

عادَ سامر من المدرسة فرحاً مسروراً، فقد اختارته
معلمةُ مادّة التربيّة الفنيّة - بسبب نباهته وذكائه وحسن
إلقائه - ليكونَ بطلَ مسرحيّة، سوف تُقدّم على مسرحِ
أبي خليل القبّاني، في يومِ الطفل العربيّ.

غمرت السعادةُ أمه وأباه وإخوته، وأبدوا اهتماماً
بالغاً بهذا الحدث الرائع، ممّا دفعهم إلى تقديم النصائح
والإرشادات إليه، لكي يكون ممثلاً ناجحاً.

وحين علمَ جدّه بالأمر، ناداه، وسأله:

هل وقع الاختيار عليك بطلاً لمسرحيّةٍ للأطفال
حقّاً؟

سامر: نعم يا جدّي.

الجدّ: وأين ستقدّم المسرحيّة؟

سامر: على مسرحِ أبي خليل القبّاني.

ضحك الجدّ، وقال: أريد أن أسألك يا بني، هل

تعرفُ من أبو خليل القبّاني؟

ذهل سامر بسؤال جدّه، وحاول جاهداً أن يستحضرَ
من ذاكرته إجابة تنقذه من عدم معرفته بهذا الرجل،
لكنه لم يفلح...!!

قال: لا شكّ أنه أحد رجال الثورة على الفرنسيين
في سورية!

ضحك الجدّ، وربّت على كتف سامر بحنان، وقال
له: اليوم بعد الغداء، سأحدّثك عن هذا الرجل. أحسنّ
سامر بالإحراج أمام جدّه، وقال: بكلّ شوق يا جدّي.



بعد الغداء...

جلس سامر أمام جدّه، وقال: حدثني عن أبي خليل
القبّاني كما وعدتني، فمن هذا الرجل؟

قال الجدّ: قبل أن أحدّثك عنه، لا بدّ أن أذكّر لك
شيئاً عن تاريخ المسرح في بلادنا.

سامر: كما تشاء يا جدّي، كلّي آذان صاغية.

تاريخ المسرح في سورية:

الجدّ: عَرَفَ الناسُ المسرحَ - يا بني - منذُ القديم، لكن بصور مختلفة، ويروي التاريخ أنّ السوريين عرفوا المسرح منذ ما يزيدُ على ثلاثة آلاف سنة، وما يدلُّ على ذلك، وجودُ مدرّجات خُدَّت الملاحمَ التي أحيّاها السوريُّ القديم، لسنين طوالٍ في تدمر وبصرى والسويداء...

ويدلُّ التصميمُ الهندسيُّ لهذه المدرّجات على قدرة الجمهور على التقاط أيّة كلمة يلقيها الممثلون، كما يدلُّ ما اكتُشفَ من قصصٍ وملاحمٍ وأناشيدٍ منقوشة على ألواح طينيّة، كانت تغنى في طقسٍ تمثيليٍّ لآلهة الخصب، على أنّ السوريين عرفوا المسرح منذ القديم، وهذا الأمر معروفٌ لدى كلِّ الأمم، ولكن مع اتساع رقعة البلاد، والتطوّرات التي حدثت في المجتمعات الإنسانيّة، وصلوا إلى ما يُعرَفُ بالمسرح.

والمسرحُ المعروفُ في العصر الحديث في بلادنا، وتحديدًا في سورية كانت له بدايات...

خيال الظل:

في البداية، كان مسرحُ الظل «الخيال»، الذي يقومُ على إلقاءِ خيالاتٍ على ستارٍ، يشاهدها المتفرجون، فيجدون فيها المتعة والفائدة.

هذا النوعُ من المسرح، يُدعى «خيالُ الظل»، نشأ قبل نشأة المسرح، ولا أحد بالضبط يعرفُ منشأه، لكن يُقالُ إنه نشأ في اليونان والهند والصين في الألفِ الأوّل قبل الميلاد، وانتقل إلى البلدان العربية.

كان صاحبُ خيالِ الظل، يعرضُ ما في جعبته من مسرحياتٍ في خيامٍ متقلّة، أو في أحواشٍ مسوّرةٍ بالخشب، وتُعرضُ على ستارٍ من قماشٍ أبيض، تنعكسُ عليه من الخلف ظلالُ عرائسٍ من الورق المقوّى، أو الجلد المضغوط، وقد وُضعَ خلفَ تلك العرائسِ مصباحٌ يعكسُ ظلاً على الستار، والعرائسُ مكوّنةٌ من أعضاءٍ تتحرّكُ بوساطةِ مفاصل، وقد علّقتُ تلك العرائسُ، واتصلتُ بها وبأجزائها المختلفةِ خيوط، تتجمّعُ في يدٍ

صاحب الخيال، وبفضلها يحركُ تلك العرائس، حسبما يشاء، ووفقاً لمقتضيات الحوار الذي يلقيه صاحبُ خيالِ الظلِّ القابع خلفَ الستار، فيسمعه المشاهدون، ويرون الصورَ المتحرّكةَ التي تصاحبه، وهو نوعٌ من أنواع المسرح الكثيرة التي عرفتها «سورية»، ومن شخصياتها الشهيرة «كراكوز وعيواظ» صديقا السهرات في معظم المحافظات السورية.

وقد استمدَّ خيالُ الظلِّ موضوعاته من الأدب الكلاسيكي، سواء أكان العربيّ أم الفارسيّ، أم التركي، كـ «ليلى والمجنون» و«قيس وليلى»، و«خُسروَ وشيرين»، و«فرحات وشيرين»، ولكن لا بدّ من الإشارة هنا، إلى أنّ هذه الشخصيات قد غيّرت بما يتلاءم مع روح فنّ الفكاهة الساخر.

سامر: هذا جميلٌ يا جدّي، أذكر أنّي رأيت برنامجاً تلفزيونياً، تحدثوا فيه عن صندوق الفرجة، والحكواتي أيضاً...

الجدّ: أحسنتَ يا سامر، فصندوقُ الفرجة هذا، كان يدعى «صندوق الدنيا».

صندوق الدنيا:

كان صاحبهُ يحمله على ظهره، ويحمل معه الدكّة، كي يجلسَ عليها المشاهدون، وكان يطوفُ الشوارعَ والحارات للعرض، حيث يرى المشاهدون من خلال فتحةٍ زجاجيةٍ صوراً ملونةً متعاقبة، فيما يقومُ صاحبُ الصندوقِ بتفسيرِ ما يراه المشاهدون بصورةٍ شائقةٍ وجذابةٍ.

الحكواتي:

عرَفَتْ دمشقُ أشكالاً عديدةً من الفرجة الشعبية، كانت تلبّي جزئياً حاجةَ الجماعةِ إلى فنِّ المسرح، فبالإضافة إلى خيمةِ خيالِ الظلِّ وصندوق الدنيا، راجَ الحكواتي في دمشق في القرنِ التاسع.

كان الحكواتي ينصبُ خيمةً في مقاهي دمشق الشعبية، ويعرضُ حكايات ذات أنماطٍ وحبكاتٍ دراميةٍ

مرنة، تتمددُ وتتفاعلُ بالارتجالِ مع جمهورِ المشاهدين،
ولا سيَّما في أيام شهرِ رمضان.

وفي زمن الاحتلال العثماني للبلاد العربيَّة، برزَ
الحكواتي كظاهرة قويَّة في بلاد الشام، ويحتفي جدارُ
مقهى النوفرة بحكواتي دمشق الأوَّل عبد الحميد
الهوري أبي أحمد المنعش من مواليد ١٨٨٥م، الذي
توفي عام ١٩٥١م.

وعادة ما يكون للحكواتي كرسيُّ مرتفع في المقهى،
ليراه الجميع، ويرتدي لباساً شعبياً، وله من الأدوات
المساعدة على سرد الحكاية ما يفيدُه، فالسيفُ
والعصا، أداتان مهمَّتان في سرد قصة الظاهر بيبرس،
أو الزير سالم، أو أبي زيد الهلالي.

وفي كلِّ مرَّة ينقسمُ جمهورُ المقهى إلى فريقين، يميل
كلُّ منهما إلى طرف من الحكاية، فثمة من كان يرى
في جساس مصيباً فيما فعله، حين رمى كليباً بالرمح،
فيما يذهبُ الفريقُ الآخرُ إلى اعتبارِ الزير سالم مصيباً
في استمراريَّة أخذه بالثأر لأربعين سنة.

سامر: هذا يعني أن الحكواتي كان حالة تمثيلية بكل معنى الكلمة، من حيث اكتمال عناصر المسرحية، من نص، وممثل، وجمهور.

الجد: نعم... نعم؛ لذلك كانت حالة الإيهام تأخذ الجمهور إلى التفاعل مع الحكاية ليكون جزءاً منها.

سامر: يُخيّل إليّ - يا حدي - أن «خيال الظل» كان من أكثر الفنون الشعبية قريباً من المسرح الحديث.

الجد: هذا صحيح، لأنه يعرض صوراً من الحياة، فيها العديد من الشخصيات التي يقف من ورائها عدد من الممثلين المحترفين.

ومن المعروف، أن هذه الفنون الشعبية، ولا شك، هيأت العقول والحواس للإقبال على فن التمثيل.

مَن أبو خليل القبَّاني؟



سامر: هذا رائعٌ يا جدِّي، فمن أبو خليل القبَّاني...؟
الجدُّ: هو أحمد بن محمد آغا بن حسين آغا، الملقَّب
«بالقبَّاني»؛ ولدَ في دمشق عام ١٨٢٣م، من أسرةٍ
دمشقيَّةٍ عريقة؛ تعلَّم القراءةَ ومبادئ العلومِ في أحدِ

الكتاتيب، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الابتدائية، وفي بدايات شبابه، أخذ يحضر حلقات الدرس في المساجد والبيوت ثم احترف مهنة القبّان، وفي هذه الأثناء، كان ينمي ميوله الموسيقية والغنائية، فاكتسب الكثير من أساتذته حتى أشادوا له بذلك...

ويُعدّ أبو خليل القبّاني رائداً كبيراً من رواد المسرح والموسيقا، فهو المؤسس الأول لما عُرف بالمدرسة الشامية التي اعتمدت على دمج التمثيل في الغناء والرقص...

كان والده يريد أن يكون متعلماً مثقفاً، فأخذه إلى الجامع الأموي الكبير، ليتعلّم اللغة العربية والقرآن الكريم، كباقي الأطفال، ولم يمض وقت طویل، حتى ذاع صيته بذكائه النادر، وصوته الساحر، بعد ذلك اتجه أبو خليل القبّاني إلى مقهى العمارة الكبيرة، ليتفرّج على «خيال الظل» وعندما شعر بميل إلى الفنّ، دعا رفاقه إلى دار أبيه «في باب سريجة» وبدأ يغني لهم.

حين رآه أبوه يرقصُ ويغني، طردهُ من المنزل، فلجأَ إلى خاله «عبد الله النشواتي»، واشتغلَ على قبَّانٍ في سوقِ البزوربيَّة، وبذلك أصبحَ لقبه «القبَّاني»، وكان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة.

لكنَّ أبا خليل - على الرغم من طرده من المنزل - لم يكن يترددُ في متابعة ما عزمَ عليه في سرِّه، من العمل في المسرح وفنونه، وبدأ يغني كلما دُعي إلى حفل، فتعلَّم في الوقت ذاته اللغةَ التركيَّة، وأتقنها وكذلك تعلَّم الفارسيَّة، وهو في سن الثامنة عشرة من عمره.

وفي وقت لاحق استأجرَ أبو خليل القبَّاني قطعةَ أرضٍ في باب توما، وراح يمرنُ رفاقه من هواة التمثيل، لتقديم رواية «عائدة»، التي بشرت بولادة مسرح القبَّاني في دمشق، وكانت أوَّل خطوة له نحو الاحتراف.

سامر: ما أهمُّ المسرحيَّات التي قدَّمها القبَّاني في

ذلك الوقت يا جدي؟

الجد: تواليت عروضُ القبَّاني، مثل «ناكر الجميل»

وقدّم فيها الغناء والموسيقا والرقص، ومن بعدها ألفَ روايةً خياليّةً عاطفيّةً أسماها «وضاح»، قيل إنه ألفها في ثلاثة أيام، ولحنها، ووزّع أدوارها على أصحابه، ومثّلت في بيت أحدهم على سبيل التجربة، ثمّ مثّلت في «كازينو الطليان»، في باب الجابية عند سوقٍ مدحت باشا.

ويذكر أن القبّاني بدأ التمثيلَ أوّل الأمر في خان العصريّة، وهو المكان الذي كان يشغله البنك العثماني، ثمّ نقل المسرح بعدها إلى الخان المعروف بخان الجمرك، في القرب من المدرسة العادليّة في منتصف المدينة.

وكان أوّل ما قدّمه رواية «ناكر الجميل»، ورواية «وضاح»، ولقد حظيت المسرحيتان بنجاحٍ منقطع النظير.

وقدم كذلك «مصباح وقوت الأرواح»، ولاقى مسرحه استحساناً وإقبالاً كبيرين، وتابع الناس أعماله

وعروضه المسرحية، وحقّق نجاحاً كبيراً، فقد كان مسرحه مكاناً ممتعاً، يؤمّه الكبراء والأمراء والشعراء والأدباء لمشاهدة رواياته... فقد جمعت مسرحياته بين جزالة الألفاظ وعدوبتها، ورقة المعاني ودقّتها، فقدّم في سنواته الأولى نحو أربعين عرضاً مسرحياً وغنائياً.

واستمع الجمهور بمشاهدة مسرحيات «الأمير محمود نجل شاه العجم» و«عنترة بن شداد» و«السلطان حسن» و«أسد الشرى» و«كسرى أنو شروان»، بالإضافة إلى المسرحيات الأدبية التي اقتبست موضوعاتها من التاريخ، وقد كان هو المؤلف، والملحن، والمخرج، وهذا ما دفعه لتطويع مسرحه، فاستعان بفتاتين من لبنان، هما لبيبة ومريم، لتقديم مسرحية «الشاه محمود».

وهكذا أصبح أبو خليل القباني مشهوراً، يحضر الناس مسرحياته، ويدعمونه، إلى أن كتب مسرحية «أبو الحسن المغفل» التي قوّضت مسرحه، فقد ثار المشايخ عليه، لظهور هارون الرشيد على المسرح في

صورة أبي الحسن المغفل، فانقضَّ عليه المتربِّصون به،
بتهمة أنه ينزِعُ عن الشخصياتِ قدسيَّتها، واتهموه بـ
«البدعة والضلالة» والاستهانة بالحكام، وأنه يجعلُ
الفتيانَ يقومونَ بأفعالِ الفتيات، «وكانوا يرونَ في ذلك
فسوقاً» وخروجاً على قواعدِ الأخلاق.

وصلَ هذا الأمرُ إلى إسطنبول، فصدرت الأوامرُ
من السلطانِ عبد الحميد، بإغلاقِ مسرحِ القبَّاني،
ومنعه من التمثيل، وكان ذلك عام ١٨٨٠م، فأحرقوا
مسرحه، ونهبوا بيته، وصار صبيانُ الأزقةِ يلحقونَ به،
ويسخرونَ منهُ بعباراتٍ عدائيةٍ...

سامر: وماذا فعل القباني لمواصلة مسيرته الفنيَّة...؟

الجدُّ: لقد قرَّرَ السفرَ إلى مصرِ يا بني.

السفر إلى مصر:

قرّر أبو خليل السفر إلى مصر عام ١٨٨٤م، فكانت مرحلة جديدة وغنيّة في حياته، اصطحب معه بعض أفراد فرقته، ومجموعة من العازفين والمنشدين.

عمل أولاً ولفترة قصيرة في الإسكندرية، وذلك بفضل جهود أحد الأعيان السوريين المقيمين فيها، وهو سعد بيك حلابو. في حزيران ١٨٨٤م استقبلت الصحافة ولا سيّما جريدة الأهرام خبر قدوم فرقة مسرحية سورية إلى الإسكندرية بكثير من الفرح، وكما يليق بشهرة القبّاني، فقد قام صاحبها «سليم وبشارة تقلا»، بالترويج لهذه الفرقة، ومدحها منذ وصولها، إذ بدأت جريدة الأهرام مهمتها يوم ٢٣ / ٦ / ١٨٨٤م حين أعلنت قدوم فرقة سورية يديرها الشيخ أبو خليل القبّاني الدمشقي الذي وصفته بالكاتب المشهور، والشاعر المطلق، أمّا فرقته فتتألف من أشهر الفنانين في ضروب التمثيل وأساليبه، بينهم زمرة من المنشدين المطربين، تروق لسماهم الآذان، وتنشرح الصدور. ولم

تغفل الجريدة - في إعلانها - التأكيد أن المسرحيات
المقدمة ستكون عربية؛ ربما المقصود أنها مسرحيات
عربية تأليفاً، لا أجنبية مترجمة أو معربة، كمعظم
مسرحيات الفرق السابقة.

وأعلنت الجريدة أسماء المسرحيات التي ستمثل،
وهي:

- (أنس الجليس):

كان العرض الأول لهذه المسرحية في قهوة الدانوب
المعروفة بقهوة سليمان باشا رحمي، وكان عرضاً
ناجحاً، ووصفت صحيفة الأهرام الجماهير التي
حضرت العرض بالغيرة، والعرض بالناجح، بفضل
براعة الممثلين، وتفننهم في أساليب التمثيل، وروعة
الإلقاء، وبلاغة الموضوع، وقد أراد أبو خليل القباني
من خلال مسرحية (أنس الجليس)، أن يؤسس
مسرحاً عربياً فصيحاً، يعرض من خلاله موضوعات
تراثية مشوقة، تحمل الكثير من الحكم والأمثال

والنماذج الأدبية الرصينة نثراً وشعراً، مزينة بأغانٍ
عربية، ليواجه بها العروض الأجنبية، أو العروض
العربية المعتمدة على نصوص مسرحية مترجمة أو
معربة، وكأنه بذلك يحارب المستعمر الذي فرض اللغة
الإنكليزية على التعليم في مصر آنذاك، وقد عرض
القباني رؤيته هذه من خلال أبياتٍ شعرية ألقاها قبل
تمثيل المسرحية، إذ قال:

مسارح أحرزت تمثيل من سلفوا
وعظاً، وجاءت لنا عنهم كمرآة
تمثل اليوم أحوال الألى سبقوا
من طبيبات لهم، أو من إساءات
عسى يكون لنا فيما مضى عبر
تجدي، وتعلم أنني عبرة الآتي
فالحُر إن مات أحيته فضائله
والوعد إن عاش مقرون بأموات
هذا هو القصد من تمثيل من عبروا
لا اللهو والزهو والإعجاب بالذات

بهذا الفكر الإصلاحيّ، كتبَ القبّاني مسرحيّة (أنس الجليس)، مستوحياً فيها «حكاية الوزيرين التي فيها ذكر أنس الجليس» المنشورة في كتاب ألف ليلة وليلة (من الليلة الخامسة والأربعين إلى الحادية والخمسين)، ليبرهنَ - منذ البداية - التزامه برسائلته المسرحيّة المنبثقة من إحياء التراث عبر معالجة موضوع من التراث العربيّ الأدبيّ.

ومن أشعار مسرحيّة «أنس الجليس» التي فيها حكمٌ ومواعظٌ من تأليفه نقتطف:

إذا اعتذرَ المسيءُ إليك يوماً
من الآثامِ عُدَرَ فتى مقررٌ
فصنّه عن جفائكِ واعفُ عنه
فإنّ العفوَ شيمَةُ كلِّ حرٍّ

وقوله:

إذا لم تصنْ عرضاً، ولم تخشَ خالقاً
وتستحي مخلوقاً فما شئتَ فافعلِ

ويذكر أنّ هذه المسرحيّة عرضتْ أكثر من أربعين مرّة.

- (نضح الرُّبَا):

عُرِضَتْ هذه المسرحيّة أربع مرات فقط، في عامي ١٨٨٤-١٨٨٩؛ ربّما لأنّها لم تكن من تأليف القبّاني نفسه، وكانت شبهً خاليةً من الأغاني والألحان، وهما عمادُ عروضِ القبّاني.

- (عفة المحبّين):

وهي من تأليف الشيخ إبراهيم الأحدب الذي اعتمدَ في كتابتها على الأدب الأندلسيّ وتاريخه، ما يعني أنّ القبّاني ما زال ملتزماً بعرضِ مسرحيّاتٍ تراثيّة، حتّى لو لم تكن من تأليفه.

تدورُ أحداثُ هذه المسرحيّة حول الحبِّ العفيف الذي نشأ بين الشاعرة ولادة، والوزير ابن زيدون، وقد زاحمه في حبّها الوزير أبو عامر «ابن عبدوس الملقب بالفار»، وفيها ذكر لرسالة ابن زيدون

الشهيرة التي يتهكم فيها من أبي عامر، كما تطرقت المسرحية إلى قصة إهدار دم ابن زيدون، وسجنه، ومن ثم هروبه إلى إشبيلية، وتقلده الوزارة في عهد المعتضد بن عباد.

وتنتهي المسرحية نهاية سعيدة، باستمرار الحب العفيف بين ولادة وابن زيدون، على غرار قصص العرب الشهيرة في الحب، وبذلك بقي القباني محترماً التقاليد العربية.

ويذكر أن مسرحية «عفة المحبين» عرضت بعدة أسماء منها: (ولادة) أو (ولادة بنت المستكفي) أو (ولادة بنت المستكفي بالله) أو (عفة المحبين الوليد بن زيدون وولادة بنت المستكفي).

- (عنتر):

سار القباني في نهج كتابتها على منوال ما قام به في «أنس الجليس»، فقد أعاد تأليفها معتمداً على القصص الشعبية التي كانت تروى في المجالس، والمقاهي

السوريّة، التزاماً منه بعرض الموضوعات التراثية، كما نظم العديدَ من الأشعار، أدخلها في نسيج أبيات عنتره بحيث يصعبُ على القارئ تمييز أبيات القبّاني من أبيات عنتره، حين يلقيها الممثل على المسرح.

- (ناكر الجميل):

مسرحيّة كتبها القبّاني بأسلوب الأوبريت «شعراً ونثراً»، وهي مسرحيّة بسيطةُ الموضوع، سهلةُ تناولِ الفني، والمرجح أن القبّاني قامَ بكتابتها وتأليفها، من غير الاعتماد على أصل تراثي معروف لها، فأسلوبه الكتابي فيها، يميلُ إلى الشكل الروائي، أكثر من الشكل المسرحي، فقد تداخل السردُ مع الحكاية، مع الإرشادات المسرحيّة، من غير فواصل محدّدة للمناظر أو المشاهد التي أطلقَ عليها القبّاني فيما بعد في مسرحياته اسم «وقائع»، وأصبحتْ هذه المسرحيّةُ درّةَ العروض المدرسيّة المسرحيّة في مصر، من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩١٦ م.

- (الخلّ الوفي):

اختتم القبّاني أسبوعه التمثيليّ الأوّل - في قهوة الدانوب في الإسكندريّة - بعرض مسرحيّة «الخلّ الوفي» التي تعدُّ لغزاً محيراً في تاريخ مسرح القبّاني؛ لأنّها مجهولة النصّ على الرغم من طباعتها، مجهولة الكاتب على الرغم من شهرتها! فالقبّاني عرض المسرحيّة عشرين مرة منذ عام ١٨٨٤م، وعلى الرغم من ذلك لم يذكر اسم كاتبها في إعلاناته الصحفيّة؛ وبعض الفرق الأخرى، قالت: إنّ مؤلّفها هو إسماعيل عاصم، وهو من مشاهير الكتّاب في ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى نجد الدكتور محمد يوسف نجم، يؤكّد أنّها مسرحيّة مترجمة عن ديماس الأب، ترجمها محمد المغربي، وهذه الاختلافات تدفعنا إلى القول إنّ القبّاني ربّما كتب مسرحيّة باسم «الخلّ الوفي»، وهي من نصوصه الضائعة، وما أكثرها! وتختلف عن المسرحيّة التي ترجمها محمد المغربي، ونشرها بالاسم نفسه فيما بعد، خصوصاً أنّ معظم أحداثها تدور

في الكنائس والأديرة، وأنَّ منظرها المتكرَّر في معظم فصولها، يحتوي على تمثال للسيِّدة مريم العذراء «عليها السلام»، وهذه الأمور لم يألَف القبَّاني كتابتها من قبل، ولم يكتب عنها فيما بعد .

ستُ مسرحيات تراثية عربية، استطاعَ القبَّاني تقديمها في مقهى الدانوب، في أوَّل أسبوع منذ قدومه إلى مصر، عبَّرت عن مدى التزامه بإظهار التراث في صورهِ المشرقة، وتمسَّكه بمفردات رسالته المسرحية، كما أظهرت نجاحه في تحقيق هدفه، من خلال أدوات منهجه المستخدمة في التطبيق، مثل: نظم الشعر، وتأليف الأغاني والألحان المتنوعة، وتشكيلات رقص السماح... إلخ، وهذه المسرحيات الست، شكَّلت رصيده الدراميِّ الناجح الذي اعتمدت عليه فرقته سنواتٍ طويلة .

هذا الرصيدُ أعادَ القبَّاني عرضه أسبوعاً آخر، معتمداً في نجاحه على إقبال الجمهور لرؤية مسرحياته التراثية الجادة، فانتقلت عروضُ القبَّاني إلى مسرح

زيزينيا؛ المسرح الذي هو أملُ الفرقِ المسرحية في الإسكندرية، وأضافَ إلى رصيدهِ عمليينِ جديدينِ هما: «الأميرُ محمودُ وزهرُ الرياض»، ومسرحية «الشيخُ وضاحُ ومصباحُ وقوتُ الأرواح» فشكّلَ بذلكَ مجموعةً من العروضِ قدّرَ لها نجاحَ جماهيريٍّ كبيرٍ.

سامر: يا له من نجاح! هذا يعني أن شهرته قد تجاوزت بلاد الشام...!!

الجد: نعم... وهذا هو ثمنُ المثابرةِ والجدِّ والاجتهادِ.

الانتقال إلى القاهرة:

انتقل القبّاني إلى القاهرة، في منتصف تشرين الأول ١٨٨٤ م، واستأجر مسرح «البوليتيما» وبدأت عروضه المسرحية تتوالى، مع إقبال جماهيري لا بأس به، لأنها كانت العروض العربية الوحيدة المطروح عرضها في تلك الفترة، وبالتالي لم تلق فرقة القبّاني أيّة منافسة، يضاف إلى ذلك قيام القبّاني بعرضين مسرحيين جديدين «لباب الغرام»، أو «الملك متريدات» و«حمزة المحتال»، وكانت عروضه الفنية أقوى من العروض الأجنبية، لأنها صاحبة رسالة...

هذا النجاح دفع القبّاني بالتعاون مع عبده الحمولي، لتقديم طلب إلى وزير الأشغال العمومية في ١٥/١٢/١٨٨٤ م، من أجل الترخيص للتمثيل في دار الأوبرا التي كانت حكرًا على العروض الأجنبية، وقد رُفض الطلب؛ لأن عروض مسرحه لا تتفق مع ما يدعو له الاحتلال الإنكليزي؛ فكيف يُسمح بعروض مسرحية تراثية عربية هدفها: العظة والعبرة والتعلم وبعث العزم

وتقدّم الأمم... إلخ؟! وهذه رسالة القبّاني المسرحيّة.

لذلك لم تنتشر الصحفُ المصريّةُ أيّ خبر عن نشاطٍ ملموسٍ للقبّاني في مصر، منذ «كانون الثاني إلى تشرين الثاني من العام ١٨٨٥ م» إذ كان القبّاني في هذه الفترة في سورية، بسبب الإحباط الذي أصابه من عدم تمثيل فرقته في دار الأوبرا المصريّة.

ويذكر فرحان بلبل في كتابه «المسرح السوري في مئة عام ١٨٤٧ - ١٩٤٦ م»، أن القبّاني قدّم في الإسكندريّة نحو خمسة وثلاثين حفلاً، قدّم فيها مسرحيات عديدة.

سامر: ولكن يا جدي هل من المعقول أن المصريين لم يعرفوا المسرح في ذلك الوقت...؟

الجدّ: بل كانوا يعرفونه، لهذا كانت هناك فرق عدّة منافسة للقبّاني.

فرق منافسة للقباني:

ظهرت أول فرقة منافسة للقباني؛ وهي فرقة يوسف الخياط التي عرضت مسرحيتي «هارون الرشيد» و«الظلم» على مسرح زيزينيا في الإسكندرية، في كانون الأول ١٨٨٤م، كما عرضت مسرحيتي «الذوب» و«الظلم» على مسرحي برنتانيا والبوليتاميا في كانون الثاني ١٨٨٥م، والمسرح الأخير كان مخصصاً لآخر عروض القباني.

استطاعت فرقة الخياط الهيمنة على الساحة المسرحية العربية في الإسكندرية والقاهرة، في أثناء فترة غياب القباني في سورية...

ظل القباني في سورية نحو ستة أشهر، واستعدَّ استعداداً تاماً للعودة إلى مصر بصورة فنية تضمن له نجاح رسالته الفنية واستمرارها.

وعاد إلى الإسكندرية مرة ثانية في تشرين الثاني ١٨٨٥م، ليعيد مشهدَ قدومه الأول؛ حيث بدأ التمثيل في

مقهى الدانوب، الذي أصبح اسمه «تيا ترو الدانوب»... كانت بداية القبّاني الثانية بدايةً ناجحة، فقد استطاع في أسبوع واحد عرضَ خمس مسرحيات، القليلُ منها من رصيده الدراميِّ المعروف مسبقاً؛ مثل مسرحيتي «متريّيات» و«عايدة»؛ والكثيرُ من المسرحيّات الجديدة، تمثّل جانباً جديداً جاء به من سورية؛ منها «مجنون ليلي» و«عبد السلام الحمصي» و«عاقبة الصيانة وغائلة الخيانة».

قرّر ترك الإسكندريّة، والعودة إلى القاهرة مرّة أخرى، ولا سيّما أنّ رصيده الدرامي وصل إلى أربع عشرة مسرحيّة. وصل القبّاني إلى القاهرة عام ١٨٨٥م، وبدأ بعرض مسرحيّاته التي لاقت نجاحاً كبيراً على أحد مسارح القاهرة الكبرى - مسرح حديقة الأزبكية - ممّا أثارَ غيرَ الآخرين، وحسدَهم، وأرادوا إيقافَ نجاح القبّاني، فقد قامت جريدة «الزمان» بتاريخ ١٨٨٥/١٢/٢٢م بنشر مقالةٍ تهاجم فيها القبّاني وفرقته - من غير ذكر اسميهما - تحت عنوان

«التشخيص العربي في تياترو الجنيّة»، بينما كانت قد نشرت بتاريخ ١١/٤/١٨٨٥م مقالةً أشادت فيها بعرض مسرحيّة «الظلوم» لفرقة يوسف الخياط.

هنا بدأتْ خيوطُ المؤامرة على القبّاني وفرقته تتكشف؛ وللأسف ابتعد القبّاني، وترك مصر لفرقتي الخياط والقرداحي، وابتعد بفرقته إلى أقاليم مصر - مدينة طنطا - طوال ثلاثة أشهر، أعادَ فيها تمثيلَ مسرحيات: «عنترة العبسي» و«ولادة» و«عبد السلام الحمصي» و«عايدة» و«ناكر الجميل».

وللأسف كان أبرز ممثلي القبّاني، قد انضمَّ إلى فرقة الخياط.

ونتيجة المقالات الصحفية المسيئة للقبّاني تفرّق أعضاء فرقته، وبالأخصّ ساعده الأيمن إسكندر فرح، فلم يجد القبّاني مفرّاً من العودة إلى سورية.

عودة ثالثة إلى مصر:

بقي القبانى فى سورىة ثلاث سنوات، وعاد إلى مصر عام ١٨٨٩م بفرقة جديدة، تحمل الكثير من العروض والفصول المضحكة، وألعاب السيف والترس.

كما جاء بممثل خاص للفصول المضحكة «أبو الخير»، بدلاً من محى الدين الدمشقى الذى انضم إلى فرقة القرداحى.

وبدا القبانى عروضه فى مقهى الدانوب فى الإسكندرية، قدم بعدها طلباً للتمثيل فى دار الأوبرا الخديوية لكنه رفض أيضاً، وبذلك لم ينجح القبانى مرة ثانية فى اعتلاء خشبة دار الأوبرا مع فرقته، لكنه عوض ذلك الإخفاق بنجاح آخر لمدة شهرين، بعروض جديدة منها: مسرحية «مى» ومسرحية «قوت القلوب»، بالإضافة إلى عروضه القديمة منها «أنس الجليس» و«الصيانة والخيانة» و«ناكر الجميل» و«ولادة بنت المستكفى» و«عايدة» و«الخل الويف».

وبعدها ظهرت عدة فرق منافسة، فترك مصر وعاد إلى سورية مدة أربع سنوات؛ وهذا الغياب جعل الفرق المنافسة تزداد تألقاً، حتى إن بعضها كانت تعرض عروض القباني نفسه...!

عودة رابعة إلى مصر:

في عام ١٨٩٦م عاد القباني إلى الإسكندرية، ومارس نشاطه المسرحي، لكنه لم يمثل في مقهى الدانوب، بل مثل على مسرح القرداحي، وعرض عليه ثلاث مسرحيات جديدة هي: «الكوكابين» و«السلطان حسن» و«أسد الشرى» إلى جانب مسرحيات من رصيده الدرامي السابق. بعد نجاح هذه المسرحيات في الإسكندرية، جاء القباني إلى القاهرة، وبدأت الصحف تهتم بأخبار مسرحه الجديد الذي كان يقف في ميدان العتبة الخضراء.

مسرح العتبة:

افتتحَ القَبَّاني مسرحَه في ١٤/١/١٨٩٧م بعرضٍ مسرحيَّة «الكوكابين» ووصفتِ الصحفُ نجاحَ هذا العرض، وأشادتْ بإقبالِ الجمهورِ عليه.

استمرَّ القَبَّاني بتقديم عروضه على مسرحه الخاصِّ، واستمرَّ نجاحُه، وبالمقابل استمرَّت المنافسةُ الفنيَّة بين فرقتي القَبَّاني وفرقة فرح أربعة أشهر، استطاعتَ فيها فرقةُ القَبَّاني أن تقف على قدم المساواة مع الفرقة المتألِّقة الأولى في مصر، وهي فرقةُ «إسكندر فرح»، وهذه المساواةُ تأتي في صالح القَبَّاني الذي عرضَ في هذه الأشهر مجموعة من مسرحيَّات رصيده الدرامي الذي وصلَ إلى إحدى وعشرين مسرحيَّة؛ ثمَّ أضافَ إليه مسرحيَّة جديدة هي «الحاكمُ بأمر الله العباسي»، وبعد أربعة أشهر من المنافسة بين فرقة القَبَّاني وفرقة فرح، عادتْ فرقةُ إسكندر فرح إلى الصدارة؛ فعادَ إلى سورية مدَّة ثلاثة أشهر، وقامَ بجمع مجموعة من المطرباتِ السوريَّات، برئاسة المطربة «ملكة سرور»،

عازفة القانون، وأطلقَ عليها جوقة «المطربات الحسان»،
وخصَّصَ هذه الجوقة لتقدِّمَ فصولاً غنائية بين فصول
مسرحيَّاته وفي ختامها .

بهذا الشكل الفني الجديد، عادَ القبَّاني إلى مصر في
نهاية آب ١٨٩٧ م، وبدأت عروضه القويَّة بمسرحيتين
هما: «الإسكندر المقدوني» و«المعتمد بن عباد».

تألقت فرقة القبَّاني من جديد، ولم تستطع الفرقُ
الأخرى مجابهةَ هذا النجاح الباهر للقبَّاني، وكذلك
ألَّف القبَّاني «جوقة المطربات» من غير رئيسة لهن.
وبدأت عروضه ونجاحاته...

كان نجاحُ القبَّاني في مصر، مدعاةً للغيرة والحسد،
ففي عام ١٩٠٠ م أحرقَ مسرحه في القاهرة بينما
كان يقدِّم عروضه في أقاليمَ أخرى في مصر؛ احترق
مسرح القبَّاني، وتوقَّف نشاطه المسرحي، وعلى الرغم
من ذلك لم تحترق رسالته المسرحية التي تبنَّتها الفرقُ
المسرحية الأخرى بعد وفاته بعشرين سنة؛ فمسرحية

«عنترة العبسي» استمرّ عرضها حتى عام ١٩٠٦م من قبل فرقة إسكندر فرح، وفرقة سليمان القرداحي، وفرقة يوسف الخياط... وغيرهم.

العودة النهائية إلى دمشق:

عادَ القبّاني إلى دمشق، لكنّه أصيبَ بالطاعون، وتوفي ودُفن في مقبرة العائلة في باب الصغير، وكان ذلك في العام ١٩٥١م.

المسرحيات التي مثلها القباني:

نوردها بحسب ما كتبه الدكتور محمد يوسف نجم:

أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد - أسد الشرى
- الإفريقية - الأمير محمود نجل شاه العجم - الانتقام
- جميل وجميلة - جنيفياف - حفظ الوداد - حمدان
«هرناني» - حمزة المحتال - الخل الوفي، والغدر الخفي
- السلطان حسن - السيد - الشيخ وضاح ومصباح
وقوت الأرواح - صلاح الدين - الصيدليّة - عاقبة
السيانة، وغائلة الخيانة - عائدة - عبد السلام -
عرابي باشا - عنتر بن شداد - الفيلسوف الغيور
- لباب الغرام - مجنون ليلي - مطامع النساء - مي
«هوراس» - ناكر الجميل - نفح الرّبا - هارون الرشيد
مع الأمير - هارون الرشيد مع أنس الجليس - ولادة
أو عفة المحبّين.

سامر: يا لها من مسيرة فنية غنية بالأحداث...!!

الجدّ: ليس هذا وحسب، فهناك المزيد أيضاً.

الموسيقا والموشحات عند أبي خليل القباني:

اشتهر أبو خليل القباني بمسرحه الغنائي الذي كان رائداً له، وعنه أخذ الفنانون المصريون. فقد قدم أبو خليل القباني خلال مسيرته الفنية إحدى وثلاثين مسرحيةً غنائية، بعضها من تأليفه، بلغ عددها خمس عشرة مسرحية منها «أسد الشرى» و«الأمير محمود نجل شاه العجم» و«الشيخ وضاح» و«مصباح وقوت الأرواح» وبعضها الآخر لمؤلفين آخرين، وبالإضافة إلى المسرحيات، كان أبو خليل يقيم الكثير من الحفلات الغنائية.



قدّم أبو خليل القبّاني بعض موشحاته ضمن مسرحياته، على سبيل المثال في مسرحية «الحاكم بأمر الله» أنشد موشح «برزت شمس الكمال».

وفي رواية «هارون الرشيد وأنس الجليس» أنشد موشحي «رقصَ البان وغنى» و«شمس كأس الراح تجلى».

إضافة إلى الموشحات، لحن أبو خليل القبّاني مجموعةً من الأغنيات الشعبية، من أشهرها «يا مال الشام» و«يا طيرة طيري يا حمامة» و«يا مسعدك صبحية».

سامر: لا شك أن الأدباء السوريين احتفوا بالقبّاني بعد وفاته.

الجدّ: نعم... فقد كتبوا عنه أعمالاً أدبيةً وفنيةً مرموقة، منها نصّ المسرحي المعروف سعد الله ونوس، «سهرة مع أبي خليل القبّاني»، وكذلك الملحمة التلفازية المشهورة «أبو خليل القبّاني».

هكذا كان أحمد أبو خليل القبّاني، الذي أحيّا

التراث العربي، وأسّس مسرحاً عربياً، مطبقاً فيه رؤيته لحركة الإحياء في المسرح، كان المسرح لديه يمثل حرية الكلمة والشجاعة في الرأي، وعنه يقول: «فيه من الحكم البالغة والأبيات الدافعة ما يطلق اللسان، ويشجّع الجبان، ويصفّي الأذهان»، إنه القبّاني الذي التزم الفصحى في كتاباته وعروضه، ومزج في حوار المسرحي النثر بالشعر بالموشحات، واقتبس النماذج الشعرية من تراثنا العربي الأصيل لتكون أسلوباً تربوياً تعليمياً مؤثراً في جمهوره.

إنه القبّاني الذي تأثر بعروضه المسرحيون، هو الذي عرفنا برقص السماح، وهو المسرحي والموسيقي الكبير حامل لواء التراث في المسرح العربي، وما زال مسرح القبّاني في شارع ٢٩ أيار مخلداً ذكرى هذا الرجل المسرحي العظيم.

سامر: يا لها من مسيرة غنية بالأحداث والمواقف! أشكرك يا جدي على هذه المعلومات القيّمة.

الجد: أرجو منك حين تقدّم مسرحيتك أن تتذكّر هذا الرجل، ومواقفه الشجاعة.

المحتوى

- تاريخ المسرح في سورية.....(٦)
- خيال الظل.....(٧)
- صندوق الدنيا.....(٩)
- من أبو خليل القبّاني؟.....(١٢)
- السفر إلى مصر.....(١٨)
- الانتقال إلى القاهرة.....(٢٨)
- فرق منافسة للقبّاني.....(٣٠)
- عودة ثالثة إلى مصر.....(٣٣)
- عودة رابعة إلى مصر.....(٣٤)
- مسرح العتبة.....(٣٥)
- العودة النهائية إلى دمشق.....(٣٧)
- المسرحيات التي مثلها القبّاني.....(٣٨)
- الموسيقى والموشحات عند أبي خليل القبّاني.....(٣٩)

المؤلف في سطور:

- هناء أحمد أبو أسعد .
- مواليد طرطوس .
- إجازة في الأدب الفرنسي - جامعة تشرين .
- تعمل في المكتب الصحفي في مديرية المسارح
والموسيقا - وزارة الثقافة .
- صدر لها في الشعر:
- العابر في كانون .
- ولها مجموعتان شعريّتان قيد الطبع: همسات -
بالأمس كنّا .

